من فلسفة الصمود

الدكتور عبد الستار قاسم

يطفو شعار الصمود على السطح أوقات الأزمات والتحديات الصعبة التي توقع خسائر كبيرة وتسبب الأحزان والآلام. يتحدث القادة والمثقفون والمقاتلون والناس العاديون عن ضرورة الصمود في مواجهة الأخطار مهما بلغت التضحيات لما في ذلك من فوائد تعم الجميع. ويقدر المعنيون أن الأضرار الناجمة عن الاستسلام أو التهاوي ستكون أصعب بثقلها على الجميع من التضحيات التي يقدمونها مهما بلغت في نطاقها وحدتها. نحن العرب لسنا بعيدين عن الشعار وما يصاحبه من أوقات قاسية، بل نحن أو جزء منا يعيش الظروف العصيبة التي تتطلب حلولا غير عادية وذات تكاليف باهظة. وربما يكون الشعب الفلسطيني على رأس العرب الذين يرفعون الشعار ويجاهدون في التمسك به.

يمكن تعريف الصمود على أنه حالة ذهنية موجهة نحو امتصاص الألم من أجل تفريغ مصدر الألم من مضمونه وإحباط أهدافه. وفي سبيل ذلك تتطور لدى الفرد إرادة عملية واعية تتناسب قوتها طرديا مع حدة الألم.

نستخلص من هذا التعريف أن الصمود عبارة عن موقف نابع من الذات وتهيئة نفسية ناتجة عن استيعاب ذهني لدور هذه الذات. أي أنه عبارة عن قناعة داخلية تتحقق الذات الإنسانية من خلالها بالممارسة العملية المنسجمة مع هذه القناعة. إنه تحقيق للذات لأنه عقلاني غير مقيد ويعمل على ترسيخ الاستقلالية الذاتية وإبعاد الذات عن أن تكون أداة. وحيث أن تحقيق الذات هدف إنساني فردي وجماعي، وأن الممارسة العملية عبارة عن انعكاس للقناعة الداخلية فإن الصمود يخص الكيان الإنساني في إطاريه الفردي والجماعي. أي أن الصمود كحالة ذهنية لا يرمي إلى تحقيق أهداف خارجة عن الذات أو عن التكامل الإنساني، وإنما إلى الإبقاء على الذات متماسكة متكاملة وقادرة خلاقة.

الصمود بحد ذاته موجه نحو القضاء على مصدر الألم بوساطة الإحباط. يفترض التعريف أن القدرة على مواجهة مصدر الألم بصورة مباشرة محدودة، وأن هذا المصدر يوجه ألما مستمرا يهدف إلى قتل الإرادة الإنسانية وإلغاء الذات وتحويل المستهدف إلى مجرد أداة طيعة تخدم أغراض المصدر لا أغراض الإنسان ذاته. وحتى لا يفقد الإنسان ذاته ويتحطم كيانه تتطور لديه ذهنية تتوجه نحو امتصاص الألم. أي تتوجه نحو تحمل الألم واستيعابه وترفض الاستسلام لمصدره. إنها تعمل على المحافظة على الإنسان في مواجهة محاولات إلغائه. وبهذا تعمل على جر مصدر الألم نحو اليأس والإحباط فالتخبط فالعشوائية فالتخلي عن بعث الألم فالاستسلام. هذه نتيجة منطقية وحتمية. إنها منطقية لأنه لا يبقى للألم معنى إذا حافظت الذات على كيانها بصمودها، وحتمية لأن ما لا معنى له لا بد أن يفقد قيمته ويتلاشى مفعوله. وإذا تلاشى مفعول الفعل تلاشى تأثير الفاعل فأصبح الفاعل وكأنه غير موجود.

يفترض الشق الثاني من التعريف أن لا معنى للصمود ما لم تتطور لدى الفرد إرادة تضع التهيئة الذهنية موضع التنفيذ. تبقى الحالة وهْما أو دربا من دروب التأمل الميتافيزيقي إلا إذا تزاوجت مع إرادة تحول دون تحقيق أهداف مصدر الألم. وهذا يفترض أيضا أن الإرادة يجب أن تكون واعية وليس مجرد إرادة عفوية. قد تتكشف العفوية عن شجاعة وبطولة لكنها تبقى تعاني من غياب الاستمرارية والتخطيط، لكن الوعي يبتعد بالمرء عن التخبط والوقوع في مصيدة

الظنون والأوهام. امتصاص الألم ليس مجرد رد فعل عفوي أو تلقائي ضمن رؤية سيكولوجية للسلوك الإنساني، وإنما أيضا عبارة عن موقف عقلاني يأخذ أبعادا سياسية تستند على معرفة ذهنية من واقع التجربة حول مصدر ألم مستمر ومتوقع. إنه موضوع إرادة موجهة ذهنيا ونتاج فكر جُبل مع التجربة وأصبح مهيأ وبإصرار وكأن الإنسان يحدث نفسه قائلا: "سأصمد ويجب أن أفعل ذلك. إنني أتلقى الألم وأستوعبه وأصبر عليه. عزيمتي قوية وصلبة ولن ينال منها أحد."

يفترض الصمود أيضا أن لا حدود لطاقة الإنسان على تحمل الألم، وأن إرادته على التحمل تشتد وتكتسب دفعا مع اشتداد الألم وارتفاع حدته. هذا افتراض نابع أساسا من الافتراض الأساسي القائل بأن الصامد قد قرر أن الحياة مع الألم أفضل من الحياة بدون كيان، وأنه رفع شعار: "لنتألم اليوم من أجل أن نحيا غدا!"

يعي المتحمّل للألم أو الصامد نقطتين في غاية الأهمية: تكمن الأولى في أن ارتفاع درجة القدرة على تحمل الألم يعني المزيد من ترسيخ اعتزازه بنفسه وتدعيم اعتباره لذاته. وهذه هي قمة الإنسانية التي ينفي الإنسان من خلالها الكثير من متع الحياة ويتقبل الآلام من أجل أن يبقى حرا أبيا رافع الرأس وغير خاضع لأحد أو متع. هكذا، يحقق الإنسان ذاته بصورة تأكيدية ومباشرة. أما النقطة الثانية فتكمن في أن الاستسلام للألم يعني غياب الذات وهزيمة الإنسان مما يقود إلى انبعاث ألم جديد يتمثل بتأنيب الذات لذاتها وتعذيب الضمير لصاحبه واحتقار الإنسان لنفسه. هذا بعينه أشد ألما من الألم الخارجي لأنه عبارة عن تناقض داخلي يعبر عن طموح شخصي أفسدته إرادة منهارة. إنه التناقض بين الإنسان واللاإنسان. يطمح الإنسان إلى المحافظة على إنسانيته، لكن اللاإنسان يزحف على الطموح فيتهاوى المرء تحت أقدام ضعفه. ينهزم المهزوم في كل لحظة يتحسس فيها ذاته ولا يجدها، أما الصامد فيحيا دائما لأن ذاته مكرسة في كل لحظاتها. الحياة مع الاستسلام أشد ألما من حياة يلازمها ألم مستمر. وما فائدة أن يكسب المرء كل متع الحياة ويخسر نفسه؟

صفات الصمود

يقود تحليل مفهوم الصمود إلى استنتاجات حول صفات تلازم الصمود ولا تنفصل عنه. تنحصر هذه الصفات في كلية المفهوم وتمحوره حول الذات وارتباطه بداخل الإنسان وعدم إمكانية تخويله. تعني كلمة الصمود أن المفهوم عبارة عن كل متكامل لا يتجزأ. لا يوجد هناك نصف صمود أو ربعه. هناك صمود متواصل وقدرة على امتصاص الألم تتسامى مع حدة الألم. فالذهنية التي تتبلور بشكل يهيء الذات للصمود حتى حد معين ليست ذهنية صمود وإنما ذهنية مهيأة للاستسلام تحت شروط أو ظروف معينة. أما تمحور مفهوم الصمود حول الذات فيعني أن الصمود بحد ذاته عبارة عن ديناميكية لتحقيق الذات تحت ظروف القسوة. ولذا فإنه ليس من المتوقع أن ينتظر الإنسان مكافأة على صموده من حيث أن مكافأته ذاتية وللذات. أما من ينتظر مكافأة خارجية على موقف صمودي لا بد أن يتهاوى إذا رأى أن المكافأة لن تأتي.

الصمود ليس مرتبطا بظروف أو عوامل خارجية أو معتمدا عليها. وإذا وجدت رابطة مع العالم الخارجي فإنها موجودة فقط بفضل توفر الحافز الذي أخرج ذهنية الصمود من كمونها وهو الألم. الألم لا يصنع الحالة الذهنية وإنما يشكل التربة الخصبة أو البيئة الملائمة لانبثاق الصمود. وبما أن الحالة الذهنية ذاتية فإنها لا تخوّل ولا تُمنح. كل شخص يطور موقفه مع إمكانية تلقي دروس في التطوير الذاتي وتحقيق الذات والسمو الذهني.

الصمود والاغتراب

يشكل الصمود آلية إنسانية يستطيع الإنسان من خلالها التأكيد على امتلاكه لذاته وحريته وعلى تحرره من أي شعور بالغربة أو الاغتراب قد يتملكه. تحاول قوى الإخضاع أن تسلبه

إرادته وتطوعه لخدمة أغراضها وتحقيق أهدافها، وهي بذلك تعيق مسيرته نحو تحقيق الذات بصورة مباشرة وتشغله بمقاومتها أو بامتصاص ضرباتها. إنه صراع إرادات تحسمه الإرادة الأكثر تصميما على الاستمرار. فإذا هبط مستوى التحمل يكون المرء قد قضى على نفسه بنوع من الاستعباد وتحول بصورة أو بأخرى إلى أداة تخدم الآخرين. هنا، عندما يقع المرء تحت طائلة الاغتراب، يفقد الإنسان نفسه ويحول بين نفسه وبين قواه الإنسانية التي تتوجها القوى الذهنية والعاطفية ويصبح ضحية للقوى الانفعالية والاستهلاكية.

الاغتراب هو نقيض الإنسان. معه تتلاشى الطموحات نحو الحرية ونحو تحقيق إنجازات تشكل دليلا على طاقات الإنسان الهائلة. يصبح الإنسان تحت سيطرة غيره ومستعبد ومسخر في خدمة عدوه من القوى الخارجية. والقوى الخارجية هنا لا تعني فقط الغير من بني البشر، بل تشمل أيضا كل الأشياء التي يمكن أن تشبع نزوات الإنسان وشهواته. فمن الممكن أن يتهاوى الإنسان أمام إغراءات مادية فينسى نفسه فيقع في شرك يصبح من الصعب أن يتخلص منه. وكم من الناس آثروا البقاء في الحفر نتيجة حبهم الشديد للمال. كثيرون هم الذين يرون في أنفسهم بضاعة يمكن متاجرتها بمال أو منصب أو جاه. لكن التاريخ يمر عن هؤلاء كأنهم لم يكونوا، ولا تخلد صفحاته إلا من أصروا على ما يجب أن يكون.

من الواقع

الأمثلة على الصمود من الواقع الإنساني كثيرة جدا وربما يصادفها المرء أو يمارسها كل يوم. للتوضيح، أسوق هنا بعض الأمثلة التي تلقي ضوءا على ما ذُكر أعلاه. كنا ذات مرة في المعتقل لدى الصهاينة. منا شخص ضخم الجثة وآخر نحيف يكاد يكون هيكلا عظميا. تهاوى ضخم الجثة أمام المحقق بعد عدة أيام من التعذيب. وكانت النتيجة أن حُكم عليه بالسجن خمسة عشر عاما وبقي معروفا أنه انهار أمام المحقق واعترف. أما النحيف فصمد مائة يوم أمام التعذيب القاسي وخرج في النهاية من السجن وبقي معروفا أنه احتمل الشيء الكثير. لكن الأهم أن الأول فقد جزءا كبيرا من احترامه لنفسه وأن الثاني اكتسب ثقة ذاتية كبيرة.

لماذا لم يتغير الوطن العربي بعد وما زال الاستبداد هو أساس الحكم فيه؟ ببساطة لأن الناس لا إرادة لهم على الصمود أمام الحكام وقسوة رجال المخابرات. ولماذا ما زال الفساد ينخر جسد الأمة؟ ذلك لأن صمود الناس أمام الإغراءات يكاد يكون غير موجود. يتحدث الشخص بحرقة ضد الفساد والفاسدين لكنه يغدو منبطحا أمام الفاسد للحصول على وظيفة أو على ترخيص أو منحة أو ما شابه ذلك. كل الصلوات والصيام والحجيج لا تسعف المرء في الوقوف مع الشريعة التي يؤمن بها والتي تأمره في احترام نفسه والالتزام بالقيم الإنسانية السامية.

صمد حزب الله على الرغم من كل الأهوال التي تعرض لها شعب لبنان. حصد اليهود الرؤوس ودخلوا القرى بالدبابات وقصفوا المقار والتحصينات بالطائرات، لكن الإرادة الأقوى تغلبت في النهاية على كل وسائل القتال الحديثة. في المقابل، جربت القيادة الفلسطينية أن تدخل المفاوضات على حساب الصمود فوجدت نفسها في قفص أفسد على الشعب الفلسطيني تاريخه النضالي.

طبعا لا يفترض الصمود تحويل الإنسان إلى قالب جامد، وإنما يترك للمرء حرية المناورة دون أن يتنازل عن المبدأ. فالمناورة قد تكون أحد الأساليب الهامة في تدمير مصدر الألم.